سلسلة حياة
الرسول وأهل بيته (ص)
من المهد إلى اللحد

سيدة نساء العالمين
فاطمة الزهراء (ع)



دار المحجة البيضاء

في مكةَ. وبعدَ عشرِ سنواتٍ من الزواجِ السعيدِ، أنجبَتْ سيدةُ قريشٍ الجليلةِ خديجةُ بنتُ خويلدٍ، طفلةً جميلةً أسماها أبوها فاطمة.

ولَمْ تكن بنتاً كباقي البنات.

لقد أنجبَتْ النساءُ قبلَها وبعدها عدّةَ أطفالٍ. لكنَّ حملَ السيدةُ خديجة هذهِ المرّة كان مختلفاً وغريباً. كان يتهيأُ لها أو هذا ما حصلَ فعلاً أن الطفلةَ كانت تكلّمُها وهي جنينٌ في بطنِها. أخبرَتْ زوجَها الذي لم يكن قد بُعثَ نبياً بعد. تمعنَ في كلامِها، وأطالَ التفكيرَ، أحسَ بأنَ هذهِ الطفلةُ ستكونُ مباركةً.

أطلّت هذهِ الطفلةُ الحلوةُ، فملأَت دنيا أبيها، واستحوذَتْ على حياتهِ كُلّها. فأغدقَ عليها حباً وحناناً لم تألفهُ قريشٌ من قبل. فتساءلَ البعضُ:

ـ «ما سرُ كلُ هذا الحبُ، وكيفَ يُمكنُ لرجلٍ أن يفرحَ بمولدِ طفلة».

ـ جرَتِ العادةُ، أن يحزنَ ويصابَ بالغمِّ كُلُّ مَنْ تولدُ لهُ فتاةٌ. فما بالُ محمد يعلنُ للملأ عن سعادته بميلادِ طفلته.

ألحّوا بالسؤالِ، لكنّهُ لم يعطِ أحداً جواباً شافياً. كان بداخلهِ يشعرُ بأنّها مباركةٌ ومنْ سماءٍ مباركة.

أغرمَ الأبُ بطفلتهِ، وملكتْ شغافَ قلبه، فكان يضعُها في حجره، ولا يطيقُ الابتعادَ عنها. كانت قُرّةَ عينه، ومسرةَ يومهِ وبهجةَ حياته. ولم تكن زوجتهُ أقلَّ منهُ سروراً. فقد فضّلتْها على بنات أختها هالة التي كانت لهنَّ خديجة أم بعد وفاة أمهنَّ، وأحاطتْها بحنانها... وكانت هي الأخرى تعرفُ بأنّها مباركة.

وأنّها بنتاً ليست كباقي البنات.

في طفولتِها الباكرة، بُعثَ أباها نبياً، فتغيّرَ مجرى حياتها وشكلها. كانت أُمّها أولَ من آمنَ بهِ وآزرَهُ، سكنَ الوحيُ بيتهم، فرأت الطفلةُ أفواجاً من أشكالِ النورِ وأطيافه تعمرُ المكان دوماً. وفي هذا الجوّ.. جوّ الوحيّ والرسالةِ نشأتْ فاطمةٌ فتشربَتْ من الإيمان حتّى غمرَ كيانها كُلّهُ.

كانت فاطمةٌ تنمو وتكبر، فيكبرُ معها حبُّ أبيها لَها وحبّها وفخرها بهِ ومع أعباءِ الرسالةِ الهائلة، كان النبي(ص) يجدُ الوقتَ لرعاية أبنتهِ فهي روحُهُ وقلبُهُ ومنتهى سعادتهِ في هذهِ الدنيا.

وعندما عيّرتْهُ قريشٌ بأنّهُ أبترليس لَهُ خلفٌ ولا يعيشُ لَهُ ولد، أنزلَ الله تعالى الآية الكريمة:

﴿إنّا أعطيناكَ الكوثرَ ، فصلِّ لربّكَ وانحرْ﴾ أخبرها النبيُّ(ص) بأنّها هيَ الكوثر الذي وهبَهُ الله إيّاهُ، ففرحتْ بذلكَ.



اشتدَّ أذى المشركينَ للرسولِ والمسلمين بحضورِهم بالشعبِ. وفي تلكَ الظروفِ القاسيةِ، توفّيتْ والدتُها الحنونة. كان وقعُ موتها على الرسول(ص) شديداً. فقد كانَتْ الزوجةُ الوفيةُ التي آزرَتْ وساندتْ زوجها في أداءِ رسالتهِ. والزوجةُ المحبةُ التي أزالَتْ عن كاهلهِ الشعورَ بالإحباطِ في أشدِّ الساعاتِ. أعطتْ للدينِ الجديدِ الكثير. وكانت دعامةً من الدعائمِ التي قامَ عليها.

أما فاطمة فقد كانت صدمتها بوفاة أمها كبيرة. كانت فتاة غضة. تعودت وجودها بقربها. فلما توفيت أحست بفراغ هائل. فأصابها الهم والحزن. وقضت أيامها تبكي والدتها العزيزة. وقال الكثيرون أن هذه الفتاة ستموت كمداً. لكنها سريعاً ما نفضت حزنها. بعد أن مسح أبوها على رأسها. واستعادت همتها ونشاطها تدريجياً.. وأخذت شيئاً فشيئاً تأخذ مكان أمها في حياة أبيها.

كانت تتفانى بخدمة أبيها. ترعى جميع شؤونه.. أصبح أبوها محور حياتها. ووسط الصعاب والشدائد والآلام مواجهة المشركين. كانت فاطمة سلوته الوحيدة. فما أن يرى وجهها الجميل المشرق الباسم حتى ينزاح عن كاهله الإجهاد والهموم. وكان يناديها بأم أبيها. وكذلك أخذ يناديها الآخرون.

كبرت فاطمة وأصبحت شابة. تمناها الجميع. وتهافت على خطوبتها. وشرف مصاهرة أبيها الأشراف وكبار القوم. لكن الرسول رفضهم جميعاً. كان ينتظر مجيء أفضل شباب بني هاشم وأشجعهم وأكثرهم إيماناً وأشدهم حباً له ولابنته. وعندما جاءه علياً(ع) خجلاً بسبب ضيق اليد. طالباً يد فاطمة للزواج تهلل وجه الرسول(ص) سروراً وقبل درعه مهراً لزواج ابنته.

وبذلك المهر المتواضع، تزوجت جوهرة رسول الله(ص) وأجمل

نساءِ قريشٍ، وأرفعهنّ حسباً ونسباً من الشابِ الفقيرِ علّيٍ بن أبي طالب(ع).



انتقلتْ فاطمةُ (عليها السلام) إلى بيتِ زوجِها. فجلبتْ معها السعادةَ والسرورَ وأشاعتْ البهجةَ في كلِّ رُكْنٍ من أركانِه. حَوّلَتْهُ إلى واحةٍ يَسْتظلُّ الإمامُ (ع) فيها من تعبِ كسبِ المعيشةِ. ومن جهادِ الأعداءِ. وإلى معبدٍ زاخرٍ بالإيمانِ.

أحبَّها بكُلِّ جوارحِه. لم يؤذِها يوماً. ولم يُسيء معاملتَها فهي بضعةُ رسولِ اللهِ (ص). ابنِ عمِّه وأخيه.

بعد عامٍ من ذلكَ الزواجِ المباركِ. ولدَتْ فاطمةُ. ابنها البكر الحسنَ. كان طفلاً ذا جمالٍ آسرٍ وأشبهَ النّاسِ بجدهِ الرسولِ (ص). أشاعَ وجودُهُ البهجةَ في حياتِها. ثُمَّ جاءَ الحسينُ فاكتملتْ سعادتَها. شعرَتْ بأنّها المرأةُ الأكثرُ سعادةً وحظاً في العالمِ. فأبوها أعظمُ النّاسِ على الأرضِ وزوجُها فارسُ الإسلامِ وأعظمُهم علماً وتقوى فضلاً عن كونِه ساعدُ أبيها الأيمنِ ومستشارُهُ الأمينِ. أما ولداها فهُما مُهجةُ قلبِ أبيها. وكان لا يخفي منزلتِهما عن النّاسِ وأعلنَ للنّاسِ مراراً:

ـ «وَلَدَيَّ هذانِ ريحانتيَّ من هذهِ الدنيا».

أما زوجُها. بطلُ المعاركِ الذي لا يشقُّ لَهُ غبارٌ. وأسدُ ساحاتِها وفارسُ أبطالِها فينقلبُ في البيتِ إلى رجلٍ آخرَ يفيضُ رقةً وحناناً لها ولأطفالِها.

كانَ البعضُ ينظرُ بغبطةٍ واعتزازٍ إلى هذا البيتِ والبعضُ الآخرَ ينظرُ إليهِ بحسدٍ وحسرةٍ. فساكنيه هُمْ أصحابُ الكساءِ الطاهرينَ المطهرينَ الذين أنزلَ اللهُ بحقِّهِم الآيةَ الكريمةَ:



﴿إنّما يُريدُ اللهُ ليُذهِبَ عنكمُ الرِّجسَ أهلَ البَيتِ ويُطهّرَكُم تطهيراً﴾.

ولم تمضِ الأعوامُ حتى ازدادَتْ أنوارُ البيتِ بمولدِ ابنتينِ جميلتينِ هما (زينبُ وأمُّ كلثوم).



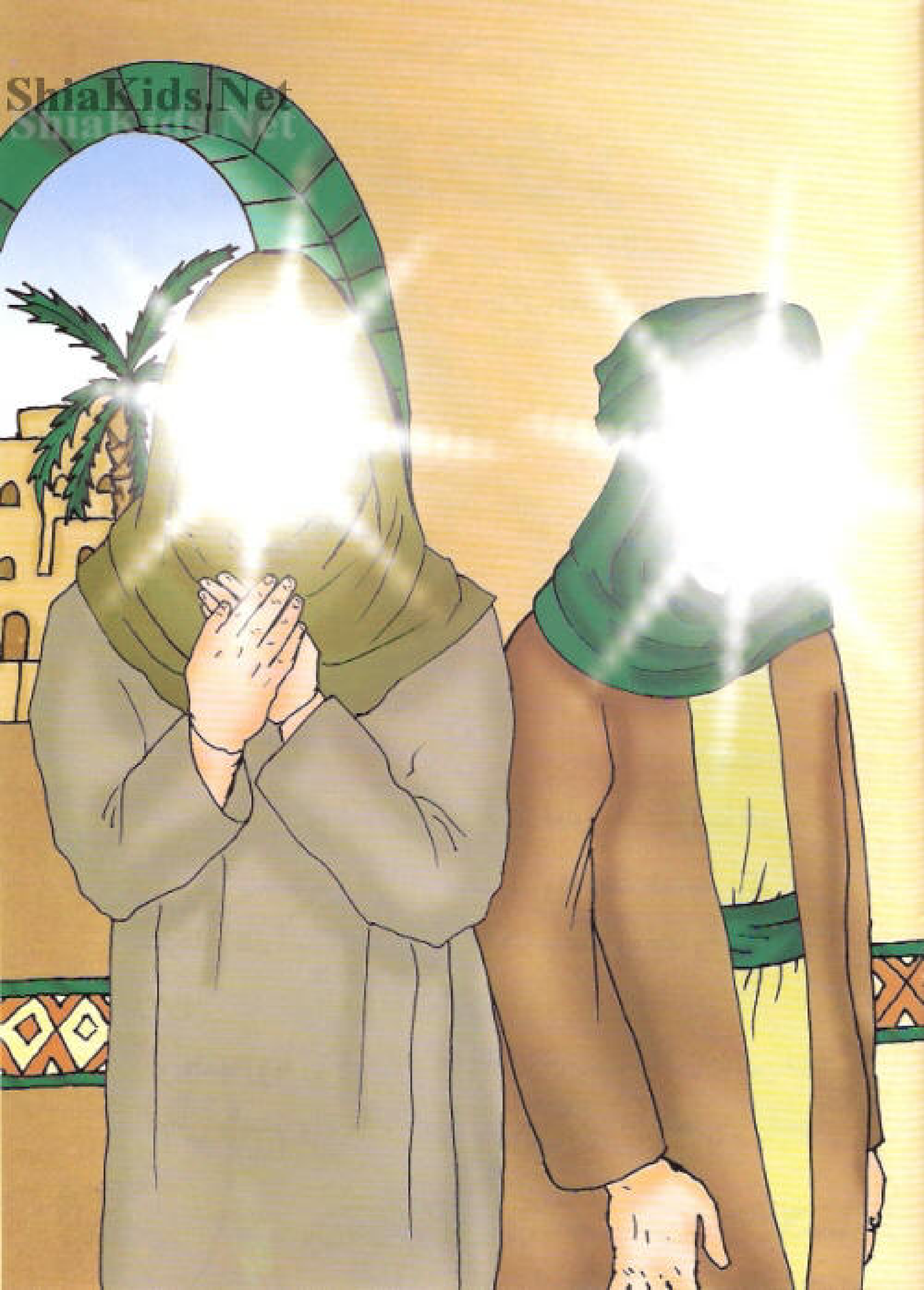
التي كانت تُدَبَّرُ في الخفاء، وما كانَ يُبَيِّتُهُ البعضُ من غدرٍ وخيانةٍ. فاشتدَّ التنابذُ والتنازعُ فيما بينهم. كُلٌّ يَدَّعي حقاً ليس لَهُ بخلافةِ رسولِ الله (ص)، بينما النبيُّ (ص) مُسَجّى في بيتِه لم يُدْفَنْ بعد.

ShiaKids.Net

كانَ زوجُها هو الوحيدُ الذي شغلَ بالنبيّ(ص) مع قلّةٍ من أهله فقامَ بتجهيزه وتكفينه ودفنه في قبره الشريف. لم يخرج من بيته مطالباً بحقّه في الخلافة. كانت خسارتهُ بابن عمّه أفدحَ من كلّ طمعِ البعض والحسد الكامن في قلوبهم أعماهم وقذفَ فيهم إلى طريق الجهالة. فأعرضوا عن وصية رسول الله(ص). وانصرفوا عن الإمام علي(ع) وتنكّروا لحقه في الخلافة. ونكثوا بيعتهم لهُ والتي أخذَها لهُ رسولُ الله(ص) في غدير خمّ.

وتوالتِ الأحداثُ المؤلمةُ. فلمْ يكتفِ البعضُ بالإعراضِ عن زوجِها، ومعاملتها بجفاءٍ. بل حاربُوها. وسلبُوا منها «فدك» إرثَها الوحيدَ من أبيها. واغتصبوهُ كما اغتصبوا الخلافةَ من قبل.

ووسطَ هذهِ المصائبُ. ارتدت بعضُ القبائلُ عن الإسلام، ممّا أثارَ منْ مخاوفِها وخشيتها على الدولة الناشئة التي بذلَ أبوها من الجهدِ والعرقِ والدّمِ ما يفوقُ الوصفَ من أجل بنائها.



ShiaKids.Net

لم تستطع تحمُلَ كُلَّ ما حدثَ؛ غرقَتْ في الحزنِ، وأخذتْ تَصِلُ الليلَ بالنهارِ في البكاءِ على أبيها، حتّى مرضَتْ وسقطتْ طريحةَ الفراشِ. جاءها بعضُ من أحدثَ ذلكَ الانقلابَ في الإسلام، بمحاولةٍ منهم لتبريرِ ما حدث، فقالَتْ لَهُم:

ـ «أما سمعتُمْ قولَ أبي رسولِ اللهِ (ص): (فاطمة بضعةٌ منّي، من آذاها فقد آذاني ومن أغضَبها فقد أغضبَني)».

قالوا: «بلا».

تنهَّدَتْ وقالَتْ:

ـ «فأُشهدُ الله أنكُمْ قدْ آذيْتمُوني وأغضبْتمُوني».

وأشارَتْ لهم بالانصراف.

ولم يَكُنْ باستطاعةِ أحدٍ بثُّ روحِ الأملِ فيها. فقد كرهَتْ الدُّنيا بعدَ رحيلِ أبيها، وزهدَتْ بالنّاسِ بعدَ ما فعلوه. فاستسْلَمَتْ لقدرِها.

ذَبُلَتْ كما تذبلُ الوردةُ النضرةُ، وشاختْ فبدَتْ أكبرَ مِنْ عمرِها.. كان أشدُّ ما يُقلِقُها هو التفكيرُ بمصيرِ زوجِها وأطفالِها بعد رحيلِها.

ويؤلمُها رؤيةُ زوجِها وولدِيها واقفينَ بجانبِ فراشِها طالبينَ منها التحلّي بالصبرِ والاستعانةِ باللهِ. وبعدَ أشهرٍ من المرضِ وقسوةِ



الأحداث. فاضَتْ روحُها الطاهرةُ بين يدي زوجها وتوفِّيت في ١٥ جمادي الأول عام ١١ هـ.

تَحْتَ جنح الظلام شيّعَها زوجها وأبنائها كما أَوصَتْ وأُخفِي قبرُها عن النّاس.

فسلامٌ عليك يا ابنة رسول الله(ص)، وأمّ الأئمة الأوصياء، يومَ وُلدتِ ويومَ مُتِّ ويومُ تُبعثينَ حيّةً.